مفهوم الاغتراب
بين الفكر الغربي والفكر العربي الإسلامي

د. بركات محمد مراد(*)

كلمة الاغتراب Aliention يعدها بعض الباحثين من المصطلحات الغربية الحديثة؛ لكثرة استخدامها لدى الباحثين والنقاد والفلاسفة في العصر الحديث، بل إن كاتبًا فرنسيًا معاصرًا برهن على أنها تحظى بالأولوية من ترددادها في مؤلفات هؤلاء. وتسويغ هؤلاء أن الكلمة الإنجليزية التي اشتقت من الكلمة اللاتينية Allenatio والدالة على الاغتراب، إنما تعني «قابلية الأشياء، بل والكائنات الإنسانية المملوكة للتنازل أو البيع».

والاغتراب بهذا المعنى القانوني يتضمن ما يمكن تسميته بـ«تشيؤ» Reification العلاقات الإنسانية، أي تحول الموجودات الإنسانية الحية إلى «أشياء» أو «موضوعات» جامدة، تحولًا يمكن أن تظهر معه في سوق الحياة كما لو كانت بضائع أو سلعًا قابلة للبيع والشراء.

ويرى بعض الباحثين أن هذا التعبير اللاتيني يرتد، في نهاية الأمر ومن حيث المعنى، إلى كلمة يونانية هي (إكستاس Ekstas) التي تعني «الجذب أو الخروج من»، فالإنسان المغترب، بحسب هذا المعنى، إنما هو ذلك الإنسان المجذوب الذي يخرج من ذاته إلى الحد الذي يعلو معه على نفسه، فيصل آخر الأمر، إما إلى

(*) أستاذ الفلسفة الإسلامية - قسم الفلسفة والاجتماع - كلية التربية - جامعة عين شمس - جمهورية مصر العربية.

الفَناء في ما يجذبه ويستغرق اهتمامه، كالمتصوف مثلًا حين يبلغ مقام الفَناء في الله. وإما إلى فقدان السيطرة تمامًا على نفسه وعلى أفعاله، كالمجنون الذي يفقد الشعور بنفسه من حيث هي مركز تجربته.

ويجب أن نتنبه إلى كلمة أن «الغريب» وإن كانت تطلق على هؤلاء الذين يخرجون في سلوكهم وتفكيرهم عن المألوف والشائع، إلا أنها لم تكن وصفًا يحمل دلالة سيئة أو مستهجنة، بل كانت - كما أدرك ذلك بحق د. «محمود رجب» في دراسته عن الاغتراب - على العكس، تقال على سبيل المدح، فقد كان اسم الحلاج مثلًا يتبع بهذا النعت «العالم السيد الغريب» إعلاء من قدره بين معاصريه، على الرغم من أنها تقال أحيانًا الآن في العربية على سبيل الاستهجان، للتعبير عن الإنسان الغريب الأطوار، بل وأصبحت في اشتقاقاتها الأوروبية تقتصر فقط على الدلالة المستهجنة للاغتراب، وكأنما هي الدلالة الوحيدة له، أي النظر إليه، كما لو كان مرضًا يعاني منه الإنسان، ومن هنا أضحى الاغتراب في كتابات المعاصرين إخفاء لعجز وتسويغًا لقصور، وهروبًا من مواجهة الواقع والحقيقة.

وعلى الرغم من شيوع استعمال معنى «الاغتراب» و«الغربة» بجانبيه الإيجابي والسلبي في الفكر الإسلامي وفي مؤلفات فلاسفة الإسلام وصوفيته، إلا أننا نجد أن استخدامه فيها عكس ما هو شائع الآن؛ إذ إن هذا الاستخدام يكاد يقتصر على الجانب الإيجابي منه، وسنجد اهتمامًا وانشغالًا مبكرًا بمعاني «الاغتراب» ترتد بنا إلى أصول الإسلام الأولى، مما يؤكد وجهة نظرنا من أن هذا المصطلح بمعانيه المختلفة يضرب بجذوره في الفكر العربي الإسلامي وليس هو وليد العصر الحديث أو رَبيب الفكر الغربي.

1- تعريف الاغتراب لغويًا:

يقال: أغرب الرجل: جاء بشيء غريب. ويقال: أغربته إذا نحّيته وأبعدته، والتغريب: البُعد. وأغرب عني، أي تباعد. وأغرب: صار غريبًا[1]. والغرب، أيضًا: النوى والبعد، وفي «لسان العرب»: رجل غُرُب بضم الغين والراء. وغريب: بعيد عن وطنه. والجمع غرباء، والغرباء هم الأباعد «واغترب فلان إذا تزوج إلى غير أقاربه»[2]. والغرب: الذَّهاب والتنحّي عن الناس، وقد أمر الرسول ﷺ بتغريب الزاني سنة، أي نفيه عن بلده، فالتغريب النفي عن البلد، والغربة النُزوح عن الوطن والاغتراب.

ومن هنا فالكلمة العربية «غربة» تدل على معنيين: **الأول**: يدل على الغربة بمفهومها المكاني، وهو معنى أقرب إلى معنى كلمة الهجرة Emigration. **والثاني**: يدل على الغربة بمعناها الاجتماعي، والتي تعني الانفصال عن إنسان آخر أو عن مجموعة من البشر.

وهذا يتبين واضحًا من حياة من كانت تنفيهم القبيلة ويسمون «المخلوعين»، فعلى الرغم من أن الإنسان العربي كان يحيا في كنف قبيلة، ينتمي إليها ويتعين بها، حتى إنه لم يكن يعرف إلا من خلالها، فإن ذلك لم يَحُلْ دون ظهور ألوان من التمرد أو القلق الفردي، الذي يدفع البعض إلى الخروج عن القبيلة وعلى تقاليدها، مما يؤدي إلى نفي هؤلاء الأفراد وخلعهم من القبيلة، نفيًا مكانيًا، واجتماعيًا.

وإن كنا نجد بعض الباحثين في الأدب العربي[3] يفترض تفرقة بين كلمة: «الاغتراب»، و«الغربة»، بدعوى أن الأولى نفسية، والأخرى مكانية، فالاغتراب يعني الشعور بالانفصال والعزلة النفسية، التي يعانيها الشخص وهو في وطنه، وبين ذويه، والغربة نوع من هجْر المكان (الوطن) إلى مكان آخر لسبب ما، مما يترتب عليه الحنين والألم إلى الوطن، أو التكيف مع الموقع الجديد.

إلا أننا نجد الباحث رغم حرصه على تأكيد التفرقة بين الاغتراب والغربة، لم يجد بدًّا من القول بوجود ملامح مشتركة، ونعتقد أنه لم يكن من الاعتراف بالتداخل النسبي على الأقل - مفرٌّ، ما دام قد وضع بين المغتربين الذين تسميهم العرب في القديم «المخلوعين»، و«الصعاليك»، إذ لم تكن الصَّعْلَكة إلا ضربًا أو ثمرة من ثمرات الشعور بانعدام التوافق مع قيم الجماعة، ربما لغياب العدل، وربما لتخلُّف بعض الشروط الضرورية التي يعتمد عليها مبدأ التكافؤ، وهو - أي العدل - مقدمة ضرورية لمبدأ التكافل بين أبناء القبيلة أو بين القبائل.

وعلى الرغم من أن الأشعار العربية القديمة التي أنتجها الاغتراب المكاني - أو الغربة - في الشعر القديم أكثر وضوحًا وكمًّا وتنوعًا، وذلك لأسباب من الطبيعة الشحيحة والاقتصاد الضعيف أو الفقر، ولكن إذا تأملنا كثيرًا من أشعار طرفة ابن العبد[4]، أو الشَّنْفَرَى في «لاميته»[5] الشهيرة، أو المتنبِّي في ديوانه[6]، لوجدنا امتزاج الغربة المكانية بالاغتراب النفسي، وأنهما في كثير من الأحيان شيء واحد، أو سبب ونتيجة، كل منهما يصح أن يكون سببًا للآخر، أو نتيجة له[7]، وسنجد لذلك كلمة «اغتراب» أو «غربة» ترد عند بعض الشعراء قديمًا في إطار التعبير عن تجربة حية إنسانية، كابدها الشاعر القديم إلى حد التمزق، ويبلغ هذا الوعي الشقي مداه عندما يدرك الشاعر أن الإنسان «موجود من أجل الموت» يقضي عمره مغتربًا حتى يجيء الموت ويضع النهاية، فيما يرى بشر بن أبي خازم الأسدي:

ثَـوَى في مُلحَـدٍ لا بُـدَّ مِنـهُ   كَفَى بالمَـوتِ نَأيـًا واغـتِرابا

رَهـينَ بِلًى، وكُلُّ فَـتًى سَـيَبلى   فَأَذري الدَّمعَ وانتَحِبي انتِحـابا

ولن نجد تعبيرًا عن الاغتراب بمعناه المكاني والنفسي والاجتماعي ينطبق أبلغ ولا أعمق من ذلك الذي نجده عند أديب الفلاسفة أبي حيان التوحيدي

(ت400هـ)، حيث نراه يعاني كل أنواع الاغتراب السابقة، كما هو واضح في كتبه، وخاصة كتابه «الإشارات الإلهية»، كما سيتضح لنا، خاصة حين يقول: «الغريب مَن نطق وصفه بالمحنة بعد المحنة ... إن حضر كان غائبًا وإن غاب كان حاضرًا». أو يقول: «وأغرب الغرباء مَن صار غريبًا في وطنه وأبعد البعداء مَن كان قريبًا في محل قُرْبه».

ثم نجد معنًى إيجابيًا لمصطلح «الاغتراب»، وهو ذلك الذي نجده عند بعض الفلاسـفة المسلمين مثـل ابن باجة (ت533هـ) الذي سيطلقه على «النوابت» في كتابه «تدبير المتوحـد»، وهم أولئـك الغـرباء «الذين ينفصلون عن مجتمعاتهم، ويتميزون عن الآخرين بأفكارهم الفريدة الصادقة».

وسيتبين لنا من ذلك أن كلمة «غريب» العربية تدل على أمرين مختلفين: أحدهما مقبول مستحسن، والآخر مَرْذول مستهجن، وهذا الازدواج في الدلالة لا يقتصر على الكلمة العربية فحسب[8]، بل سنجده أيضًا ينطبق على الكلمة اللاتينية Alienatio بعد قليل، وفي اشتقاقات هذه الكلمة في اللغات الأوروبية الحديثة. وإن كانت ستغلّب الدلالة المستهجنة للاغتراب، أي النظر إليه كما لو كان مرضًا يعاني منه الإنسان، على الدلالة المقبولة، حتى تكاد تستبعدها، وكأنها هي الدلالة الوحيدة للاغتراب.

2- تعريف الاغتراب اصطلاحيًا وتطوره في الغرب:

المرادف الأجنبي لكلمـة «اغـتراب» العربيـة هو Alienation في الإنجليزية، و Alination في الفرنسية، وهما مستمدتان من الكلمة اللاتينية Alienato ، وهي اسم مشتق من الفعل اللاتيني Alienare الذي يعني نقل ملكية شيء ما إلى آخر، أو يعني الانتزاع أو الإزالة، وهو - بدوره - مشتق من فعل آخر هو Alienus ، أي الانتماء لإنسان آخر أو التعلق به، وهذا الفعل الأخير مستمد بصفة نهائية من لفظ Alius ، الذي يعني «الآخر» سواء كاسم أو كصفة[9].

وللكلمة اللاتينية «اغتراب» استخدامات متعددة عبر التاريخ، فقد وردت في سياقات مختلفة: سياق نفسي، وقانوني، واجتماعي، وديني.

فقد استخدمت للتعبير عن الإحساس الذاتي بالغربة أو الانسلاخ Detachment ، سواء عن الذات أو عن الآخرين. كما استخدمت في مجال القانون لتفيد نقل ملكية شخص ما إلىٰ شخص آخر علىٰ فعل يفيد قيام شخص ما بتغريب شيء ما يملكه كالأراضي والمنازل[10]. وقد وجدت هذه الفكرة صداها العميق لدىٰ أصحاب نظرية «العقد الاجتماعي» مثل «روسُو»، فاستخدموا الاصطلاح للدلالة علىٰ نقل الملكية السياسية.

كما استخدم المصطلح في العصر الوسيط للتعبير عن حالات الصرع أو فقدان الوعي، وظل مستخدمًا في مجال الطب[11].

ثم أخيرًا استخدامًا لاهوتيًا له في الشروح اللاتينية لـ «الكتاب المقدس» للدلالة علىٰ معاني: «الغربة عن الله» أو «المفارقة بين الله والإنسان»[12].

ولذلك ليس غريبًا أن نجد في اللغة الألمانية كلمتين تقابلان المعنىٰ العربي وهما Entfremdung التي تعني «الغربة»، و Entausenung بمعنىٰ «التخارج»، وقد رأي - كاوفمان - في مقدمته لمؤلف شاخت، وهو يوضح الفرق بين الكلمتين، أن الفعل «يغترب» Aliemate فعل لازم (في العربية والألمانية)، وهو يعني: يغدو غريبًا، أو يجعل شيئًا ملكًا لآخر، ولكن الاسم المشتق منه (الاغتراب) - شأن المرادف الألماني: «الغربة» Entfremdung ، وعلىٰ عكس الكلمة الألمانية التي تعني «التخارج»، لا يستدعي للذهن عادة نشاطًا، اللهُمّ إلا في سياقات خاصة يستخدم فيها كاصطلاح فني.

وما يرتبط في أذهاننا - ابتداء - بكلمة الاغتراب أو الغربة Entfremdung هو أنها حالة للوجود الإنساني حالة كون المرء مغتربًا أو مفارقًا لشيء أو لشخص[13].

وكما كانت كلمة الاغتراب منذ بداية استعمالها قديمًا، مزدوجة المعنى؛ إذ كانت تطلق للدلالة على عناصر إيجابية (مقبولة) وعناصر سلبية (مرذولة) في آن واحد. فقد أظهر فلاسفة العقد الاجتماعي: توماس هوبز (1588-1679)، وجون لوك (1632-1704) - وأخيرًا روسو - كلا الجانبين السلبي والإيجابي معًا، وساد في فلسفتهما الاهتمام بالأبعاد الاجتماعية والنفسية معًا، فإننا نجد روسو يقول: «إن الاغتراب معناه التسليم أو البيع ... فالإنسان الذي يجعل من نفسه عبدًا لآخر لا يسلم نفسه، وإنما هو بالأحرى يبيع نفسه، من أجل بقائه على الأقل»[14].

وهنا نلحظ اتجاهًا إيجابيًا يتمثل في تسليم الإنسان ذاته إلى الكل حين يتنازل سلبيًا عن حريته من أجل قيام المجتمع، وجانبًا سلبيًا حين ينظر الإنسان إلى ذاته كما لو كانت شيئًا أو سلعة يطرحها للبيع في سوق الحياة.

ولم يكن بوسع روسو أن يتوصل إلى صياغة هذا التعريف، الذي يشير إلى الدلالة المزدوجة لكلمة «الاغتراب»، لو لم يكن قد خبر وعانى في زمانه، مشكلة الاغتراب بأبعادها وجوانبها المتداخلة والمتعارضة[15].

فالمعروف أن لروسو تجربة ذاتية تكشف هي نفسها عن موقف نقدي كان قد اتخذه إزاء عصره ومجتمعه، ولما كان يشيع فيهما من أفكار وقيم زائفة، هذا الموقف الذي يظهر فيه روسو أحيانًا، وكأنه ذلك «الغريب في وطنه» الذي سيحدثنا عنه أبو حيان التوحيدي، أو ذلك المتوحد الذي يجعل من نفسه مغتربًا بين الناس في المدن غير الفاضلة في «تدبير المتوحد» لابن باجة.

ثم نجد الفيلسوف الألماني هيجل (1770-1831م) في العصر الحديث أول من حفل باستخدام هذا المصطلح استخدامًا منهجيًا مقصودًا ومفصلًا، حيث عالج اغتراب العقل أو الروح عن عالم الأشياء الذي هو من خلق الإنسان، والذي قد أخذ يعلو على الإنسان ويستقل مبتعدًا عنه، وأصبحت تحكمه قوانين وقوى لا يستطيع الإنسان السيطرة عليها أو التحكم فيها[16].

واستخدم هيجل «الاغتراب» في معنيين، أولهما يعني «الانفصال»، أي فقدان الوحدة مع البيئة الاجتماعية، والثاني هو «التخلي» أي محاولة قهر الاغتراب والعودة إلى الوحدة الكلية.

وفي «ظاهريات العقل الكلي» يتتبع هيجل مسار الوعي الإنساني وتطوره في مختلف أشكاله وصوره، وهو لا يهتم في هذا التطور بالمراحل الزمنية وبالأحداث التاريخية قدر اهتمامه بالتطور المنطقي الباطني في تاريخ الإنسانية[17].

وبذلك يكون هيجل قد أدرك المعنيين السلبي والإيجابي للاغتراب، فحينما يفشل الوعي في التعرف على ذاته في العالم الموضوعي الذي أنتجه بنفسه؛ لأنه الآن لم يعد ينتمي إليه، بل ويناقضه[18]، وهذه لحظة من لحظات تخارج الذات في العالم الموضوعي، يتمثل الغربة السلبية التي مثلها بوضع المسيحية في عهد الإمبراطورية الرومانية، حيث توجد هوة شاسعة تفصل الروح عن عالمها المنتج الذي يقف ضدها.

ولكن الإنسان لا يكون مغتربًا دومًا بالمعنى السيئ، وهو في الوقت نفسه لا يكون متكاملًا إلى الأبد، بل إنه بالأحرى كائن يتأرجح بين التخارج والاغتراب، أو بين التكامل والتشيؤ[19].

ومن استقراء مؤلفات هيجل نجد أن الاغتراب عنده في مرحلة الشباب كان يحمل دلالة سلبية غير مقبولة؛ إذ كان يعني في أغلب المواضع - خاصة أنه كان يعاني أزمة عصره التي هي أزمة اغتراب - فقدان الحرية والتلقائية والحيوية، وغير ذلك من مظاهر سلبية تتعارض مع الحرية، وتحول دون أن يكون الإنسان واحدًا، أي متناغمًا مع نفسه ومع العالم.

ثم نجد في مؤلفات سن النضج عنده ما لمصطلح «الاغتراب» من ازدواج في الدلالة، حيث نرى المعنى الإيجابي الذي يتمثل في تخارج الروح وتجليه على نحو

إبداعي في الطبيعة أولًا، وفي أضرب الحضارة المختلفة بعد ذلك، مثلما نرى المعنى السلبي، الذي يتمثل في عدم قدرة الذات على التعرف على ذاتها في مخلوقاتها من الأشياء والموضوعات.

ثم أخذ المصطلح - بتأثير من هيجل وفلسفته - يتردد في كتابات كثير من المفكرين المحدثين مثل ماركس (1818-1883)، خاصة في مؤلفات الشباب[20]، التي يعالج فيها الاغتراب الاقتصادي الذي يعده أصلًا لجميع أنواع الاغتراب الأخرى.

ويمكن القول: إن مفهوم ماركس عن الاغتراب هو الأكثر شيوعًا وتأثيرًا في الفكر المعاصر من أي مفهوم آخر. وربما يعود ذلك إلى بساطة المفهوم الذي يطرحه وارتباطه المباشر بالواقع المادي للإنسان، خاصة أنه يوظف هذا المفهوم في النواحي الاقتصادية من مذهبه.

ويحدد «جون تشار»[21] أربعة أنواع من الاغتراب عند ماركس، هي: اغتراب الإنسان عن ناتج عمله، واغترابه عن عمله، واغترابه عن ذاته، واغترابه عن الآخرين. ويشكل اغتراب الناتج عند ماركس باغتراب الفعل الإنساني أو النشاط الإنتاجي ذاته، والذي يشكل اغتراب العمل عنده حقيقتان:

الأولى: خارجية العمل بالنسبة للعامل، أي إن الإنسان لا يحقق ذاته في عمل وإنما ينفيها ويحقرها. فبدلًا من أن يكون العمل هو مصدر السعادة وأساس تطوير الطاقات الجسمانية والعقلية، يصبح مصدرًا لشقاء الإنسان ولتدمير جسده وإفساد عقله.

الثانية: أن هذا العمل ليس له وإنما هو لشخص آخر هو صاحب رأس المال.

أما اغتراب الإنسان عن ذاته وعن الآخرين، فيعد بالنسبة لماركس نتيجة مباشرة لاغترابه عن عمله وعن ناتج هذا العمل[22].

ثم أصبح مصطلح «الاغتراب» يعالج بعمق من قِبَل هؤلاء الوجوديين المعاصرين الذين يُعدُّون ثورة على هيجل وفلسفته، حيث يحتل تصور الاغتراب من تأملاتهم وتحليلاتهم الوجودية مكانًا مرموقًا، حيث يعتبر الاغتراب عندهم ضربًا من ضروب الوجود الزائف، غير الأصيل وغير المشروع، الذي يسقط فيه الإنسان سقوطًا يفقد معه حريته، ومناط إنسانيته وجوهر وجوده، فضلًا عن انتباههم إلى الآثار المدمرة للتكنولوجيا على إنسانية الإنسان وحريته[23].

وبذلك ينتقل المصطلح من مجال الفلسفة إلى مجال الأدب، كما تمثله كل الوجوديين في أعمالهم الروائية والمسرحية، مثل «جان بول سارتر» أو «ألبير كامي» أو «جابريل مارسيل»، وربما فسر لنا هذا كيف تسلل «الاغتراب» إلى الواقعية الماركسية عبر الوجوديين أنفسهم، فهذا ريتشارد شاخت يحدد اسم الناقد الاشتراكي المعروف «لوكاتش»[24] باعتباره مرحلة توصيل، أو جسرًا، ما بين الوجودية والاشتراكية فيما يتصل بالاغتراب - بصفة خاصة؛ لخلفيته الإنسانية - من جهة، ولصلته المبكرة بالوجودية من جهة أخرى، وقد نسب شاخت إلى لوكاتش قوله عن «كيركجورد» (1813-1855) أحد رواد الوجودية (غير السارترية) إنه «قد لعب دورًا يعتد به في تطوري المبكر».

ولم يقف التأثير الوجودي على مفاهيم الاغتراب عند الفلاسفة، وإنما تجاوزهم إلى المبدعين في مجالات الأدب، وبخاصة ألبير كامي، الذي كتب رواية «الغريب»[25]، كما اشتُهر بمؤلفه «المتمرد»، وترددت أصداء هذا المصطلح في أعمال «جابريل مارسيل» وغيره من أدباء الوجودية، على اعتبار أن مفهوم الاغتراب لا يختلف عندهم عن القضايا الوجودية الأخرى مثل: الحرية، العدم، الموت، الحب، الأمل، الزمان ... إلخ.

فالوجوديون ينظرون إلى الاغتراب على أنه ظاهرة إنسانية، ترتبط بوجود

الإنسـان في العـالم بوصفه ذلك الوجود، «المهمل» أو «الملقى» هناك كما قال «هَيْدجر». وعلى هذا فإن الاغتراب الوجودي هو: إمكانية قائمة في صميم الوجود الإنساني، ومنقوشة في قلبه. والجدير بالذكر أننا سنجد ظاهرة «الاغتراب» تختلف من مفكر إلى آخر، ومن اتجاه إلى آخر، إذا دققنا البحث والاستقصاء – بحسب الجذر الذي تنتمي إليه والظروف والأحوال التي تدفع في اتجاهه. فالاغتراب عند فويرباخ[26] يرتبط بنوع من الوعي المشوّه، وعند ماركس ينبع من واقع المجتمع الطبقي. وعند أريك فروم ينشأ عن تحرر الإنسان من خارجه دون تحرره من داخله، وبالتالي فهو يرتبط عنده بعجز الإنسان عن أن يكون ذاته.

أما الاغتراب عند الوجودية فمصدره مختلف عن كل الاتجاهات السابقة، حيث ينبع من أحوال وجودية تخص الوجود بما هو كذلك، يجمع هذه الأحوال صفة «العرضية Contingency»، التي تعني في السياق الإبستمولوجي (المعرفي) فقدان الارتباط الضروري بين الأشياء وبعضها البعض. وفي السياق الأكسيولوجي (القيمي) فقدان المعايير وفقدان القواعد التي تحكم القيم والأشياء. وفي السياق الأنطولوجي (الوجودي) فقدان السبب الكافي، مما يؤدي إلى الاعتقاد بالتبعية واللامعقول، حيث تتجلى مظاهره في الغثيان والقلق والعبث[27].

ومن هنا، ونظرًا لاهتمام الوجودية المحوري بالحرية الفردية، فإنهم ينظرون إلى الاغتراب على أنه ضرب من ضروب الوجود الزائف، غير الأصيل وغير المشروع، الذي يسقط فيه الإنسان سقوطًا يفقد معه حريته، مناط إنسانيته وجوهر وجوده.

بالإضافة إلى أن الوجوديين سيوجهون انتباههم إلى الآثار المدمرة للتكنولوجيا (التي هي من أهم سمات العصر الحديث) على إنسانية الإنسان وحريته، ويرون أنه متى سيطرت التكنولوجيا على الإنسان، تحول إلى مجرد شيء مستأصَل الإنسانية، خلوًّا من كل حرية، ومن هنا فهي عند كثير منهم من عوامل اغتراب

الإنسان وسقوطه. على أن الفلاسفة والأدباء معًا أصبحوا يتوسعون في استخدام الكلمة تفسيرًا - أو إشارة - لأحد ملامح العصر الحديث والحضارة المعقدة التي تضغط على الفرد وتخضعه لقوانينها وتطوراتها[28].

ثم أخذ هذا المصطلح مساحة كبيرة من المعالجة الأيديولوجية والفلسفية في منتصف هذا القرن عند كثير من المفكرين المعاصرين من أمثال «ماركيوز Marcuse» و«فروم Fromm» و«ملز Mills»، وهم أصحاب نزعه إنسانية اشتراكية متعددة الأصول والمصادر من ماركسية ووجودية وفرويدية وهيجلية. وكان رواج مصطلح «الاغتراب» وانتشاره بين جمهرة المثقفين في الغرب، يرجع في معظمه إليهم، فقد اتخذوه أداة كشف وفضح وتوضيح ونقد، في آن معًا، لآفات مثل: الاستبداد السياسي، والقهر الاجتماعي، والجمود الديني، والكبت الجنسي، والتعصب بمختلف أشكاله»، إلى آخر هذه الآفات التي انتشرت في المجتمع المعاصر[29].

ونظرًا لأن الحضارة الحديثة أصبحت بالنسبة للإنسان تشكل أزمة وتضع بآلياتها، وتسارع تقدمها المذهل في شتى الميادين، مما يسبب للإنسان أنواعًا مختلفة من الاغتراب، مما يحول بين الإنسان وقلبه وعقله، ويدفع به إلى الوقوع فريسة للأمراض النفسية والعقلية، مما دفع باحثة معاصرة[30] إلى اعتبار «الاغتراب» مرضًا عضالًا يبحث عن الشفاء. ولذلك تقرر أن الشيزوفرينيا هي أمُّ الاغتراب.

فمهما كانت حدود هذا الاغتراب أو درجته، وهل هو انعزال عن الذات، أو استلاب لها، أو تناقض معها، فكل هذه المسميات - أو الصور في رأي الباحثة - لا تعدو أن تكون ثنائية مرضية، أو ازدواجية موبوءة، أو شيزوفرينيا، إنه انقسام الذات عن ذاتها لتغترب عنها كآخر، أو انفصال الذات عن العالم لتغترب عنه».

وعلى الرغم من أننا لا نوافق الباحثة في ما ذهبت إليه، حيث إنها لا ترى من «الاغتراب» سوى جانبه السلبي دون ذلك الجانب الإيجابي، والذي سنتحدث عنه في حينه، إلا أننا لا نستطيع أن نغفل ذلك الجانب المرَضي من الاغتراب، خاصة إذا علمنا أن علم النفس التحليلي ابتداء من رائده وواضع أسسه «سيجموند فرويد» قد اهتم بالاغتراب، وأشار إلى الانفصام Schizophernia وإلى الاكتئاب Deprssion وعُصاب الوسواس القهري Complsive Neurosis وربط - أو وازى - بين هذه الانحرافات النفسية ومراحل من سيطرة الشعور الجنسي (اللذة) [31].

ومع أهمية هذه الإشارات للعلاج النفسي - فإنها لا تدخل إلى دائرة الإبداع الفني أو الفلسفي، على ما تذهب إليه - بحق - باحثة معاصرة[32]، وبصفة خاصة الشيزوفرينيا أو الانفصام، فمريض الانفصام يتحول شخصين لا يعلم أحدهما شيئًا عن الآخر، ولم يحدث أن تم إبداع فني تحت القهر المرضي بهذه الدرجة، مهما قيل عن استلاب شخصية المبدع، أو غيبوبته، أو هلوسته، فهذا كله يختلف عن الانفصام.

والخلاصة أننا سنجد كثرة من المفاهيم التي تعالج مصطلح «الاغتراب»، وسنصادف تفسيرات تتعدد بتعدد المفكرين والفلاسفة الذين يتناولون هذا المصطلح عبر العصور في مختلف الفلسفات، فنجد بينها ما يمكن تسميته «تشيئ Reification العلاقات الإنسانية»، أي تحول الموجودات الإنسانية الحية إلى أشياء أو «موضوعات جامدة» تحولًا يمكن أن تظهر معه في سوق الحياة كما لو كانت بضائع أو سلعًا قابلة للبيع والشراء.

وسنجد أيضًا معنى «الجذب، أو الخروج من»، فالإنسان المغترب إنما هو ذلك الإنسان المجذوب الذي يخرج من ذاته إلى الحد الذي يعلو على نفسه[33]،

فيصل آخر الأمر إلى الفناء فيما يجذبه ويستغرق اهتمامه كالمتصوف مثلًا، حيث يبلغ مقام الفناء في الله.

كما سنجد معنًى إيجابيًا، لا ينفصل عن المعنى النفسي، وإنما يرتبط به ارتباطًا يكاد يكون عضويًا، ذلك لأن أغلب المغتربين نفسيًا كانوا مغتربين اجتماعيًا، بمعنى أن اغترابهم - أي اضطرابهم - كان في جانب كبير منه أثرًا من آثار نبذ المجتمع، أو تجاهله، أو مطاردته لهم، ومن ثم كانوا غرباء بين الآخرين، تميزوا بعدم الانتماء إلى الآراء أو المعتقدات الشائعة المألوفة.

أو قد يعني هذا المصطلح «اغتراب» انفصال الإنسان عن الله، ففي السياق الديني بحسب التصور الديني في «الإنجيل»، أن الخطيئة ليست مجرد تعدٍّ على شريعة الله وأحكامه، وإنما هي في جوهرها انفصال عن الله Aversio Deo ، كما في المسيحية وفي التصور الأوروبي عامة.

ومما هو جدير بالذكر أن المصادر التي بين أيدينا تقدم الحضارة الحديثة والمعاصرة على أنها المتهم الأول وراء تفشي مشاعر الاغتراب، فنجد كثيرًا من هذه الدراسات تقوم على دراسة جوانب مرضية من ظاهرة الاغتراب مثل الأعباء النفسية «للحضارة الحديثة» و «الحضارة والمرض»[34]. وهي تتخذ من المجتمعات الغربية مجالاتها، حيث تتوافر المعلومات الدقيقة والإحصاءات، ولكننا لن نكون بمنأى عن النتائج المستخلصة عن مجتمعات الغرب حين تتوازى الظاهرات، فالاستجابات الإنسانية متقاربة، وقد عانينا من الهجرة إلى المدن، وسيادة نمط الاستهلاك، وغسل الأدمغة بالدعاية، والتغييرات الاجتماعية والصراعات، ومن ثم فقد عرفنا الأمراض الجسمية النفسية المنشأ، وعرفنا الفجوة بين الأجيال وتمرد الشباب[35].

على أن ازدياد سرعة التغير يؤدي إلى مشكلات إضافية، إذ يفقد المرء قدرته

علىٰ التكيف مع المتغيرات، المتسارعة، وقد يجد نفسه في مواجهة مواقف متعارضة، بل متناقضة، ومن ثم يضطرب سلوكه، وتطيش أحكامه، وتتشتت أفكاره، ولا يجد مفرًا من أن يكون سلبيًا، أو رافضًا، أو متقلبًا بين الصنفين[36]، مما يجعله يقع فريسة للاغتراب بأنواعه المختلفة؛ من نفسي واجتماعي ووجودي. إذًا فتعريف الاغتراب علىٰ أنه حالة من الانفصال تحدث بين الإنسان في الجانب الأول، وبين ذاته وأفعاله أو ما عداه من بشر أو أشياء، وهو حالة تكون مسبوقة بوحدة حقيقية أو مفترضة، وتتم بطريقة واعية أو غير واعية، ويعقبها نتائج يمكن أن تكون إيجابية وفعالة، فتسير تجاه تحرير الإنسان وتطوير ذاته وملكاته، أو قد تكون سلبية ومعوقة، فتؤدي إلىٰ تدمير الذات الإنسانية.

وعلىٰ كل حال، لا معنىٰ للحديث عن الاغتراب دون تحليل الأسباب التي تؤدي إليه، والنتائج التي تترتب عليه، والأسباب قد تتعدد، فقد تكون نفسية أو عقلية أو ثقافية أو اجتماعية أو سياسية أو دينية.

أما النتائج - وكما سيذهب إلىٰ ذلك باحث معاصر[37] - فهي مسألة صعبة، لأنها ترتبط بالمستقبل، وغالبًا ما تعكس موقفًا أيديولوجيًا وقيميًا معينًا، فالفنان مثلًا ينظر إلىٰ اغترابه علىٰ أنه حالة إيجابية، في حين أنه قد يكون في أعين الناس عامة شاذًا أو غير قادر علىٰ التواصل والتكيف. وقد يبدو الإنسان المتمثل الذي فقد ذاته في الحشد واغترب عن ذاته (وفقًا لمعيار إريك فروم أحد علماء الاجتماع المحْدثين) متناغمًا مع ذاته ومع الآخرين وسويًا تمامًا.

3- الاغتراب في الفكر العربي الإسلامي:

علىٰ الرغم من أن كلمة الاغتراب Alienation يعدها بعض الباحثين من المصطلحات الغربية الحديثة؛ لكثرة استخدامها - كما مر بنا - لدىٰ الباحثين والنقاد والفلاسفة في العصر الحديث، مما دعا كاتبًا فرنسيًا معاصرًا إلىٰ أن يراهن

على أنها تحظى بالأولوية من ترددها في مؤلفات هؤلاء[38]. والذي حملهم على هذا الظن هو توجيه الانتباه إليها في مختلف فروع العلوم والمعارف، خاصة بعد أن استخدمها هيجل في العصر الحديث استخدامًا منهجيًا مقصودًا ومفصلًا، ثم اهتم بها الماركسيون من جهة والوجوديون من جهة ثانية في مذاهبهم وفلسفاتهم بعد أن عالجها كل من هوبز ولوك وجان جاك روسو في كتاباتهم. وأخيرًا أخذ هذا المصطلح مساحة كبيرة من المعالجة الأيديولوجية والفلسفية والاقتصادية، فضلًا عن الاجتماعية عند كثير من المفكرين المعاصرين من أمثال: ماركيوز وفروم وملز، وهم أصحاب نزعة إنسانية اشتراكية متعددة الأصول والمصادر من ماركسية ووجودية وفرويدية وهيجلية.

إلا أن هذا المصطلح يضرب بجذوره في الفكر العربي والإسلامي، قبل أن يهتم به الفكر الغربي أو يوجه الانتباه إليه بزمن طويل. فإننا نجد أن هذا المصطلح يتردد في أشعار عرب الجاهلية قبل الإسلام، خاصة في شعر أولئك الصعاليك والمخلوعين والخارجين على تقاليد القبيلة، كما نجده في بعض الأحاديث النبوية الشريفة بعد ظهور الإسلام، فقد جاء في الخبر أن رسول الله ﷺ قال: «بدَأَ الإِسْلامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»[39]، وقد ورد الحديث برواية أخرى تفسر لنا معنى «الغربة»، وهي: «بدَأَ الإِسْلامُ غَرِيبًا ، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ» قالوا: يا رسول الله، ومَن الغرباء؟ قال: «الذين يزيدون إذا نقص الناس». ويفسر ابن قيم الجوزية[40] معنى الزيادة في هذا الحديث فيقول: «فمعناه الذين يزيدون خيرًا وإيمانًا وتقًى إذا نقص الناس من ذلك»[41].

وهذا ما حدث بالفعل، فلم يكد يمضي قرن من الزمان، حتى اغترب الإسلام والمتمسكون به، فوصف المسلمون بالغربة، وصف الحسن البصري (ت110هـ) بالغربة، ووصف سفيان الثوري (ت161هـ) بالغربة.

وقيل إن أحمد بن عاصم الأنطاكي - وكان من كبار العارفين في زمان أبي سليمان الداراني (ت215هـ) - كان يقول: «إني أدركت من الأزمنة زمانًا عاد فيه الإسلام غريبًا كما بدأ، وعاد الحق فيه غريبًا كما بدأ، إن ترغب فيه إلى عالم وجدته مفتونًا بحب الدنيا، يحب التعظيم والرياسة، وإن ترغب إلى عابد، وجدته مخدوعًا حريصًا، غدره إبليس، قد صعد به إلى أعلى درجات العبادة وهو جاهل بأدناها، فكيف له بأعلاها»[42].

كما نجد حديث الغربة ومعانيها المختلفة تتردد في عصر الصحابة، فقد دخل عمر بن الخطاب فوجد معاذ بن جبل جالسًا إلى بيت النبي ﷺ وهو يبكي، فقال له عمر: ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن؟ هلك أخوك؟ قال: لا ولكن حديثًا حدثنا به حبيبي رسول الله وأنا في هذا المسجد. فقال: ما هو؟ قال: «إن الله يحب الأخفياء الأتقياء الأبرياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا وإذا حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كل فتنة عمياء مظلمة»[43]. فهؤلاء هم الغرباء الممدوحون المغبوطون؛ لقلّتهم في الناس جدًّا سموا غرباء؛ لأن أكثر الناس على غير هذه الصفات.

ومن هنا يذهب باحث معاصر[44]، ونحن نوافقه في ذلك، إلى أن الاغتراب بهذا المعنى إسلامي، حث عليه الدين وأخذ به النبي عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وكثير من الصحابة من أمثال أبي ذر الغفاري وحذيفة بن اليمان وسلمان الفارسي، خاصة حينما يكون تمسكًا بمعايير الإسلام الأصلية، واستعصامًا بمبادئه الروحية السامية، حين تعصف بها الأهواء الجامحة وتطيح بها التقاليد البالية، فيكون الاغتراب بالمعنى الإسلامي اغترابًا عن الحياة الاجتماعية الزائفة الجارفة، واغتراب عن النظام الاجتماعي غير العادل[45]، فالغرباء - وسنجدهم دائمًا من العلماء والصوفية والفلاسفة - قاوموا الحياة ومغرياتها بطريقة إيجابية فعالة،

فقهروا السلطتين معًا، سلطة الحكام الجائرين الملوّحين بالترهيب والترغيب، وسلطة النفس الأمارة بترويضها على الطاعات والمجاهدات والارتفاع بها إلى سماء القيم. كما اعتزلوا الناس أحيانًا حين تختلط المعايير، وتتبلبل الأفكار، فحل النظام الروحي الداخلي، الذي يشيع في النفس الشعور بالأمن والأمان محل النظام السياسي الخارجي الجائر، والذي كثيرًا ما أدخل الرعب والخوف في قلوب عامة الناس بعد أن تفشت بينهم فتنة الشهوات وفتنة الشبهات.

ومن هنا فليس غريبًا أن نجد كثيرًا من الشخصيات العربية والإسلامية يمكن أن ينطبق عليها هذا الوصف «الغريب» والغرباء في القرون الإسلامية الأولى مثل الحلاج (ت309هـ)، والسُّهْروردي المقتول (ت587هـ)، وأبي حيان التوحيدي (ت400هـ)، من بين الصوفية المسلمين في الشرق.

كما سنجد فلاسفة إسلاميين يمكن أن ينطبق عليهم هذا الوصف كابن طفيل (ت581هـ)، وابن باجة (ت533هـ)، وابن رشد (ت595هـ) الذين كثيرًا ما أحرقت كتبهم ونفوا من أوطانهم في المغرب العربي والأندلس. ولم تكن جريرة كثير من هؤلاء الصوفية والفلاسفة، إلا أنهم عاشوا أفكارهم وخرجوا في سلوكهم وتفكيرهم عن الشائع والمألوف في أوطانهم ومجتمعاتهم، خاصة إذا علمنا أن لمصطلح «الاغتراب» - كما مر بنا - معاني مختلفة: معنى نفسي واجتماعي ووجودي، بحيث تتباعد تلك المعاني تباعدًا شديدًا، ففي الوقت الذي نجد لمعنى «الاغتراب» ما يمكن تسميته «تشيؤ Reification العلاقات الإنسانية»، أي تحول الموجودات الإنسانية الحية إلى أشياء أو «موضوعات جامدة» تحولًا يمكن أن تظهر معه في سوق الحياة كما لو كانت بضائع أو سلعًا قابلة للبيع والشراء، سنجد أيضًا في الفكر والحياة الإسلامية معنى «الجذب أو الخروج من»، فالإنسان المغترب إنما هو ذلك الإنسان المجذوب الذي يخرج من ذاته إلى الحد الذي يعلو على نفسه[46]، فيصل

آخر الأمر إلى الفناء فيما يجذبه ويستغرق اهتمامه، كالمتصوف مثلًا حيث يبلغ مقام الفناء في الله.

كما سنجد معنى اجتماعيًّا، لا ينفصل عن المعنى النفسي، وإنما يرتبط به ارتباطًا يكاد يكون عضويًّا؛ ذلك لأن أغلب المغتربين نفسيًّا كانوا مغتربين اجتماعيًّا، بمعنى أن اغترابهم - أي اضطرابهم - كان في جانب كبير منه أثرًا من آثار نبذ المجتمع، أو تجاهله، أو مطاردته لهم، ومن ثم كانوا غرباء بين الآخرين، تميزوا بعدم الانتماء إلى الآراء أو المعتقدات الشائعة المألوفة، وسينطبق هذا النوع من الاغتراب إلى حد كبير على أديب الفلاسفة أبي حيان التوحيدي كما سنرى.

أو قد يعني هذا المصطلح «اغتراب» انفصال الإنسان عن الله، كما عبرت عن ذلك بوضوح قصة خلق آدم وهبوطه من الجنة إلى الأرض، كما تمثلها المسلمون من القرآن الكريم، ولذلك سوف نجد عند بعض صوفية الإسلام كابن عربي (560-683هـ) الذي ينص في «فتوحاته المكية» على أن «أول غربة اغتربناها وجودًا حسيًّا عن وطننا، غربتنا عن وطن القبضة عند الإشهاد بالربوبية لله علينا، ثم بطون الأمهات، فكانت الأرحام وطننا فاغتربنا عنها بالولادة»[47]. أو كما نجد عند السهروردي حكيم الإشراق (ت587هـ) في قصته الرمزية «الغربة الغريبة» والسقوط في عالم البرزخ.

وهكذا لو تتبعنا المعاني المختلفة لمفهوم «الاغتراب»، فسنجد أنها معاني ترددت كثيرًا في مؤلفات المفكرين المسلمين وكتاباتهم، وليست وليدة العصر الحديث، كما اعتقد بعض الباحثين المعاصرين، وهذا ما أشار إليه د. محمود رجب حين عالج هذا المفهوم بعمق ودقة، وإن كان في نطاق ضيق فيما يتصل بالمسلمين.

ولكنه تمكن من إدراك تجلي هذا المفهوم واضحًا عند الفيلسوف ابن باجة (ت533هـ) في كتابه «تدبير المتوحد»، حيث نجد هذا الأخير يسمي هؤلاء المغتربين «النوابت» ويقول عنهم: «إن النوابت من لم يجتمع على رأيهم أمة أو مدينة، وهؤلاء هم الذين يعنيهم الصوفية بقولهم الغرباء؛ لأنهم كانوا في أوطانهم وبين أترابهم وجيرانهم، غرباء في آرائهم، فقد سافروا بأفكارهم إلى مراتب أخرى هي لهم كالأوطان»[48].

وحين ينتهي الباحث[49] إلى أبي حيان التوحيدي يشير إليه بذكاء، حيث يقول: «في الواقع لا نجد تعبيرًا عن الاغتراب بمعناه النفسي - الاجتماعي، أبلغ ولا أعمق من ذلك الذي نجده عند الأديب أبي حيان التوحيدي، خاصة أنه يعيش كل أنواع الاغتراب، حتى صار غريبًا عن الغربة نفسها. والشعور بالغربة عنده ليس شعورًا جامدًا، وإنما هو تيار يعلو على ذاته، ويتجدد في صيرورة لا تهدأ، فالغريب الحق، هو الدائم الغربة، هو الذي تكون غربته في حركة دائمة»[50].

ولا يمكننا - في الحقيقة - استقصاء كل حالات «الاغتراب» في الفكر والثقافة الإسلامية، وهي كثيرة وتحتاج إلى جهود كبيرة لدراستها وتحليلها، سواء عند الصوفية أو الفلاسفة أو الأدباء والشعراء، ولكن إذا أشرنا إلى أحد المفكرين المسلمين الذين عالجوا هذا الموضوع في وقت مبكر، فإننا سنجد «الهروي الأنصاري» (ت493هـ) في كتابه «منازل السائرين»، والذي حلله وعالجه معالجة صوفية «ابن قيم الجوزية» (ت751هـ) في كتابه «مدارج السالكين»، نجده يعرف «الغربة» بأنها «الانفراد»، وهو إما بالجسم، وإما بالقصد والحال، وإما بهما معًا، وكأن الغريب غريب الجسم أو غريب قلب وإرادة حال، أو غريب بالاعتبارين معًا.

ولذا فالغربة الأولى هي «غربة عن الأوطان». والثانية هي «غربة الحال»، وهي على ثلاث درجات: وتكون لصاحب صلاح ودين بين قوم فاسدين، وصاحب علم ومعرفة بين قوم جاهلين، وصاحب صدق وإخلاص بين أهل الكذب والنفاق.

أما الغربة الثالثة: فهي «غربة الهمة»، وهي «غربة طلب الحق، وهي غربة العارف؛ لأن العارف في شاهده غريب. وموجوده لا يحمله علم، أو يظهره وجد، أو يقوم به رسم، أو تطيقه إشارة، أو يشمله اسم غريب. فغربة الغربة؛ لأنه غريب الدنيا والآخرة».

وإنما كانت هذه الدرجة أعلى مما قبلها؛ لأن الغربة الأولى غربة بالأبدان، والثانية غربة بالأفعال والأحوال. وهذه الثالثة غربة بالهمم. فإن همة العارف حائمة حول معروفه. فهو غريب في أبناء الآخرة فضلًا عن أبناء الدنيا، كما أن طالب الآخرة غريب في أبناء الدنيا[51].

ومن هنا نجد «الهروي» يعلي من شأن هذا النوع الأخير من الغربة؛ لأنها غربة العارف فهي «غربة الغربة». والغربة أن يكون الإنسان بين أبناء جنسه غريبًا، مع أنه له نسب فيهم. وأما غربة المعرفة فلا يبقى معها نسبة بينه وبين أبناء جنسه إلا بوجه بعيد؛ لأنه في شأن، والناس في شأن آخر.

وإذا كان الصالحون غرباء في الناس، فالزاهدون غرباء في الصالحين. والعارفين غرباء في الزاهدين. ومن هنا نجده يجعل العارف «غريب الدنيا، وغريب الآخرة»، وهو يعني أن أبناء الدنيا لا يعرفونه؛ لأنه ليس منهم، وأهل الآخرة – العباد والزهاد والمجتهدون – لا يعرفونه أيضًا؛ لأن شأنه وراء شأنهم، ومعرفته فوق معرفتهم، همتهم متعلقة بالعبادة وهمته متعلقة بالمعبود، مع قيامه بالعبادة[52].

لقد أثرى الصوفية هذا المفهوم، وجعلوا له أبعادًا فلسفية وروحية، لن يتطرق إليها المفكرون الغربيون في العصر الحديث، وهي يمكن أن تشكل دراسات

مستقلة جديرة بالبحث، خاصة عند شخصيات إسلامية لم تكن مألوفة بمذاهبها في عصرها، كابن عربي والسهروردي والحلاج، وكانت لمعارفهم وأحوالهم ومواجيدهم، تخريجات وتأويلات تُحمل على وجوهها في الفهم والتأويل، ذهبت بهم مذاهب بعيدة في الاغتراب؛ لأنها خرجت على المألوف والشائع، وتجاوزت المعروف والعادي، فتعرضوا لحملات قاسية من النقد والتجريح، بل والقتل في كثير من الأحيان. وقد عاشت هذه الشخصيات حياة قلقة تميزت بالغربة والاغتراب، خاصة أن الشخص الخلّاق - كما يشير إلى ذلك «والتر كاوفمان»[53]- ربما يكون بحكم كونه كذلك شخصًا غير متوافق، يضع التقاليد موضع التساؤل، أو يخرج عنها. وكلما كانت أصالته أكثر عمقًا، ازداد عمق اضطراره للاغتراب عن مجتمعه».

ويجب أن ننتبه إلى أن كلمة «الغريب»، وإن كانت تطلق على هؤلاء الذين يخرجون في سلوكهم وتفكيرهم عن المألوف والشائع، إلا أنها لم تكن وصفًا يحمل دلالة سيئة أو مستهجنة، بل كانت - كما أدرك ذلك بحق باحث معاصر[54] - على العكس، تقال على سبيل المدح، فقد كان اسم «الحلاج» مثلًا يتبع بهذا النعت: «العالم السيد الغريب»[55]، إعلاء من قدره بين معاصريه، على الرغم من أنها تقال أحيانًا الآن في العربية على سبيل الاستهجان للتعبير عن الإنسان الغريب الأطوار، بل لقد أصبحت في اشتقاقاتها الأوروبية تقتصر فقط على الدلالة المستهجنة للاغتراب، وكأنما هي الدلالة الوحيدة له، أي النظر إليه، كما لو كان مرضًا يعاني منه الإنسان، ومن هنا أضحى الاغتراب في كتابات المعاصرين[56] إخفاء لعجز وتسويغًا لقصور، وهروبًا من مواجهة الواقع والحقيقة.

وعلى الرغم من شيوع استعمال معنى الاغتراب والغربة بجانبيه الإيجابي والسلبي في الفكر الإسلامي، وفي مؤلفات فلاسفة الإسلام وصوفيته، إلا أننا

نجد عكس ما هو شائع الآن، إن الاستخدام يكاد يقتصر على الجانب الإيجابي منه، وسنجد اهتمامًا وانشغالًا مبكرًا بمعاني «الاغتراب» ترتد بنا - كما رأينا - إلى أصول الإسلام الأولى، مما يؤكد وجهة نظرنا من أن هذا المصطلح بمعانيه المختلفة يضرب بجذوره في الفكر الإسلامي، وليس وليد العصر الحديث أو ربيب الفكر الغربي. وسيزداد يقيننا وثوقًا كلما توغلنا في دراسة تلك المفاهيم المتصلة بـ «الاغتراب». والسياقات التي يرد فيها، عند كثير من عباقرة صوفية الإسلام وفلاسفته عامة، وعند ابن باجة وأبي حيان التوحيدي بوجه خاص.

*

الهـوامش

(1) محمد بن أبي بكر الرازي: مختار الصحاح، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، ص302، مادة (غ.ر.ب) الطبعة الرابعة، الجزائر 1990.

(2) ابن منظور: لسان العرب، ج2، ص129 وما بعدها. القاهرة.

(3) د. عبده بدوي: قضية الغربة المكانية في الشعر العربي، ص57-101 من كتابه «قضايا حول الشعر»، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر 1992.

(4) ديوان طرفة: تحقيق: درية الخطيب، مجمع اللغة العربية، دمشق، عام 1975.

(5) الشنفرى: لامية العرب، تحقيق: محمد بديع الشريف، بيروت، عام 1968.

(6) شرح ديوان المتنبي: وضعه عبد الرحمن البرقوقي، ج2، ص40-48، بيروت، عام 1938.

(7) د. سعاد عبد الوهاب: الاغتراب في الشعر الكويتي، حوليات كلية الآداب، الرسالة 94، الكويت، عام 1994.

(8) د. محمود رجب: الاغتراب سيرة مصطلح، ص44، 45، الطبعة الرابعة، دار المعارف، عام 1993.

(9) ريتشارد شاخت: الاغتراب، ص53، ترجمة: د. كامل يوسف حسين، الطبعة الثانية، مصر 1995.

(10) Eric and Mary Josephson: Man Alone, p. 12.

(11) ريتشارد شاخت: الاغتراب، ص54.

(12) السابق، ص54.

(13) ريتشارد شاخت: الاغتراب، المقدمة بقلم كاوفمان، ص8، 15.

(14) Rousseau. Du Conrat social, paris, Gatnier, Flammarion 1966, P. 45.

(15) د. محمود رجب: الاغتراب سيرة مصطلح، المقدمة، الطبعة الرابعة، دار المعارف، عام 1993.

(16) استعمل هيجل المصطلح كثيرًا في كتابه «ظاهريات العقل الكلي» الذي نشره عام 1807 وكتاب «فلسفة القانون». انظر: شاخت: الاغتراب، ص73 وما بعدها.

(17) د. محمود رجب: الاغتراب، ص165.

(18) Schaar: Escape From Authority. Basic Book Inc. New york, Second printing 1961. P. 183.

(19) د. حسن حماد: الإنسان وحيدًا، دراسة في مفهوم الاغتراب في الفكر الوجودي المعاصر، ص33، الهيئة العامة لقصور الثقافة، العدد 39، القاهرة 1995.

(20) مثل المخطوطات الاقتصادية والفلسفية التي كتبها عام 1844 ونشرت بعد وفاته.

(21) جون تشار، المرجع السابق، ص188.

(22) نقلاً عن د. حسن حماد: الإنسان وحيدًا، ص34، 35.

(23) د. محمود رجب: الاغتراب، ص17، 18.

(24) ناقد اشتراكي من منظري الواقعية، ولد في بودابست عام 1885م.

(25) أديب فرنسي وجودي، نال جائزة نوبل في الأدب عن روايته «الطاعون»، وكتب «الغريب» عام 1942 ونال بها شهرة كبيرة.

(26) تقوم معالجة فويرباخ للاغتراب على نقده للدين بشكل عام ولفكرة الإله بشكل خاص، على الرغم من أن هيجل في كتاباته اللاهوتية الأولى قد سبقه في نظرته النقدية إلى اللاهوت، إلا أن فكرة الدين تمثل اغتراب الإنسان عن جوهره الحقيقي هي فكرة تنتمي إلى فويرباخ الذي قام بتحويل اللاهوت إلى الأنثروبولوجي أو علم الإنسان. انظر في هذا: د. حسن حنفي: الاغتراب عند فويرباخ، مجلة عالم الفكر، ص53، مجلد 10، العدد 1 - الكويت، عام 1979.

(27) Herdegger (M): Beignand Time, Trans by. John Macquarrie and Edward Robimson Harper & Row Pub llisher. New York 1962. p. 175.

وموريس كرانستون: سارتر بين الفلسفة والأدب، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، ص129، الهيئة العامة للكتاب 1981.

(28) د. سعاد عبد الوهاب: الاغتراب في الشعر الكويتي، ص26، مجلة حوليات، كلية الآداب، العدد 94، الكويت، سنة 1994.

(29) د. محمود رجب: الاغتراب، ص19، 20.

(30) د. يمنى طريف الخولي: العلم والاغتراب والحرية، ص8، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1978.

(31) انظر مقدمة د. أحمد عكاشة لترجمته لكتاب فرويد عن «ليونارد دافنشي»، الأنجلو المصرية، سنة 1970.

(32) د. سعاد عبد الوهاب: الاغتراب في الشعر الكويتي، ص27، حوليات كلية الآداب، الحولية 14، الكويت، عام 1994.

(33) Rote nstneeicg. on "The eestatic sout ces of a Lienation" Reuiew Metaphgsics, March 1963.

وانظر د. محمود رجب: الاغتراب، ص35، 36.

(34) د. محمد عصام فكري ود. أحمد عزت راجح: مجلة عالم الفكر، عدد خاص عن مشكلات الحضارة، المجلد 2، العدد 3، الكويت سنة 1973.

(35) هذه أهم عناصر دراسة د. أحمد عزت راجح، نقلًا عن د. سعاد عبد الوهاب: الاغتراب، ص30، 31.

(36) د. أحمد أبو زيد: مقدمته للعدد الخاص عن «مشكلات الحضارة»، عالم الفكر، المرجع السابق.

(37) د. حسن حماد: الإنسان وحيدًا، ص47.

(38) Domenach. I. M. Pourenfinir aveci . Alienation Espril December 1965. p. 58.

(39) أخرجه الإمام مسلم والإمام أحمد وابن ماجه.

(40) وله مؤلف بعنوان «الغربة والاغتراب».

(41) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين ط3، ص122، القاهرة 1292هـ وهذا الكتاب شرح لكتاب «منازل السائرين» للهروي. يفرد ابن القيم بابًا خاصًا للغربة من منحاها الصوفي والديني. فيتكلم عن الغرباء وأصنافهم ودرجاتهم، والغربة ووحشتها حين تكون موحشة وحين تكون مؤنسة، وهو بذلك أول مَن عالجها في جوانبها السلبية والإيجابية، وهو يعتبر بذلك أول مَن كتب عن الغربة والاغتراب بتعمق وتدقيق.

(42) ابن رجب الحنبلي: كشف الغربة في وصف حال أهل الغربة، ص15، القاهرة، د.ت.

(43) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين، ج2، ص153.

(44) د. فتح الله خليف: الاغتراب في الإسلام، ص88، مجلة عالم الفكر المجلد 10، العدد 1، الكويت 1979.

(45) السابق، ص88، 89.

(46) Rotenstreeich, On "The ecstatic sourcee of a Lienation" Reuiew Metaphgsics, March 1963.

وانظر د. محمود رجب: الاغتراب، ص35، 36.

(47) ابن عربي: الفتوحات المكية، ج2، ص96، 97 مصر.

(48) ابن باجة: تدبير المتوحد ضمن رسائل ابن باجة الإلهية، ص24، حققها: د. ماجد فخري، بيروت، عام 1968، وهذا التحقيق هو الذي سنشير دائمًا إليه.

(49) د. محمود رجب: الاغتراب، ص42.

(50) كما سيتضح لنا حين نستعرض معالجته للاغتراب في كتابه «الإشارات الإلهية».

(51) الهروي الأنصاري: منازل السائرين، ج3، ص126، مصر، د.ت.

(52) المرجع السابق، ج3، ص126، 172.

(53) مقدمة لكتاب «الاغتراب» لريتشارد شاخت، ص31، ترجمة: د. كامل يوسف حسين.

(54) د. محمود رجب: الاغتراب، المقدمة.

(55) الحلاج: الطواسين، ص2، نشرة: لويس ماسينيون، مصر.

(56) انظر: عالم الاجتماع الأمريكي رايت ملز.

• ○ •